

السودان المؤثر المغيب في المسرح المصري

المسرح جمع الشعبين المصري والسوداني ضد الاحتلال



خشبات جمعت آلام شعبين



مسرح بقضايا سياسية

ويسرفون في اللهو واللعب والإنفاق فإذا حانت ساعة الجد والعمل تقدموا إلى الجهاد وقلوب مطمئنة واستعدبوا الموت تحت العلم. تلك خلاصة ما تحتويه الرواية وليس فيها مظهر للهم إلا إن حسبتم ذكرى السودان بهذه الصورة من المحظورات، والرأي لحضرتكم على كل حال.

وملاحظة الرقيب كانت في غاية الأهمية؛ لأنه يعلم جيدا محاولات الإنكليز في هذه الفترة لشنق الصف بين الشعبين المصري والسوداني، لذلك ينهه رئيسه بان إعادة تاريخ الصراع بين البلدين أيام الثورة المهديّة تعدّ من المحاذير الرقابية، مما يعني أن منع تمثيل المسرحية سيكون القرار الأصوب. وهنا تظهر أهمية الورقة الثالثة.

الترباط بين الشعبين المصري والسوداني ضد الاحتلال الإنجليزي وصل إلى مراتب كبيرة بفضل الأعمال المسرحية

والورقة الثالثة عبارة عن الترخيص بتمثيل المسرحية، موقعة من مدير الرقابة، وموجهة إلى محافظ مصر -أي محافظ القاهرة- ومؤرخة في 1/11/1926، وهذا نصها "حضرة صاحب السعادة محافظ مصر، نرسل مع هذا لسعادتك نسخة من رواية 'تحت العلم' التي رُخص بها، وهي تأليف عبدالرحمن أفندي رشدي، وستمثل ابتداء من الليلة بمسرح رمسيس، فالأمل التنبه بحفظها للإشراف على التمثيل بمقتضاها مع مراعاة ما حذف منها في الصفحات: 3 و4 و5 و12 و14 و15 و23 و24 و26 و27 و28 و29 و32 و39 و43 و50 و55 و61 و62 ومراقبة عدم إلقاءه أو تمثيله."

رشدي المحامي. وقعت حوادثها بين مصر والسودان. يمثلها فرقة مسرح رمسيس، فترى الحوادث مجسمة: ثورة المهدي - الدراويش - عبدالله النعاشي - سعيد باشا - سلاطين باشا - الجيش المصري في صحارى النوبة. يمثل أهم الأدوار الأستاذ النايفة يوسف بك وهبي- فاطمة رشدي (جريدة الأهرام - 1926/10/26).

وهذه المسرحية غير منشورة أيضا، ولكنني احتفظ بصورة منها منسوخة ومكتوبة بالالة الكاتبة، وتقع في 86 صفحة من القطع المتوسط، ومكتوب في صفحاتها الأولى- بعد الغلاف "رواية تحت العلم: صحيفة فياضة بالألام، ذات فصول أربعة. وقعت حوادثها في وادي النيل بين سنتي 1884 و1897". والنص مرفق بثلاث أوراق رسمية من جهاز الرقابة المسرحية وقتئذ (ملحق الدراسة، جميع صور الوثائق من الصورة السادسة إلى الصورة الثانية عشرة): الأولى، بها طلب ترخيص بتمثيل المسرحية موقعا من محمد عبدالجواد سكرتير مسرح رمسيس، ومؤرخا في 10/10/1926. والورقة الثانية عبارة عن تقرير رسمي من قبل الرقيب حسن حافظ، مؤرخا في 14/10/1926، وهو تقرير يحمل ملخصا للمسرحية، ورأي الرقيب في موضوع المسرحية، ولأهمية هذا التقرير سأذكره بنصه، وجاء فيه:

"تحت العلم: تتضمن هذه الرواية حديث إخلاء السودان سنة 1884، وما أصاب المصريين من المهديين المتوحشين بعد أن كثرت العهود والمواثيق وعذبوا الضباط الذين وقعوا في الأسر. ثم تعود فتذكر فتحه سنة 1897 وإيقاد الجيش المصري لأولئك الأسرى المغزيين؛ فإذا بين ضباط الجيش الفاتح أبناء لضباط الذين ظلوا في أسرهم كل ذلك الزمن لا يعلمون ما حل بأولادهم. وبين هذا وذاك تعرض قهوة من القهوة التي كانت في ذلك العصر شائعة كثيرة يغشاها الناس لشهوه الرقص وسماع الغناء فإذا في هذه القهوة ضباط يلهون ويلعبون

"مصر والسودان" من تاليف مصطفى سامي، وتمثيل فرقة أحمد الشامي، التي عرضت المسرحية بدار التمثيل العربي، وبتياترو كونكورديا، وفي تياترو برنتانيا، وفي تياترو الأوبرا بالينا الشرقية بالإسكندرية، وفي تياترو الألواردو ببور سعيد.

وعلى الرغم من عدم اكتشافنا لنص مسرحية "الهجرة" أو "مصر والسودان" إلا أننا وجدنا مقالة صغيرة منشورة في جريدة "السفور" بعنوان "رواية الهجرة"، جاءت فيها معلومات تدل على أن "الهجرة" المقصودة في المسرحية هي هجرة المهدي الشهيرة تاريخيا ودينيا، ناهيك عن وجود أسماء وشخصيات في المقالة، تؤكد ما نذهب إليه، لذلك سنذكر هنا ما جاء في جريدة السفور بالنص:

"شاهدنا تمثيل رواية الهجرة من جوقة أحمد الشامي، فأعجبنا بشرف قصد المؤلف وإخلاصه؛ ولكن الرواية خارجة خروجاً كبيراً عن قواعد الفن المسرحي، ومزجحة بأفكار كثيرة، كانت تمر على المشاهدين مَرَّ الخيال لكثرتها، فيضيع الغرض منها. ونعجب على المؤلف وضع دور 'بهاء الدين' و'حبيبة' باللغة العربية الفصحى؛ لأن ذلك مناف للحقيقة، ومستهجن في رواية كل أدوارها عامة. وما أقرب إلى الاستغراب، وأدعى للدهشة من سماع بهاء الدين يكلم باللغة العربية إلا بعض زئوج أفريقيًا، الذين لا يعرفون إلا بعض كلمات عامة منها. وفي الرواية قليل من الألفاظ المكتشفة، يجب محوها. أما عن الممثلين فقد أجاد ممثل دور 'مطر باشا'، وممثل دور 'سوقي'، وكذلك أجادت ممثلة دور 'أنيسة'، وممثلة دور الخادمة السورية وإن كان الدور غير مهم."

محمد علي وفتح السودان

في عام 1925 وصل الترابط بين الشعبين المصري والسوداني ضد الاحتلال الإنجليزي الساعى للفصل بينهما إلى قمته؛ فقام الكاتب المسرحي بديع خيري بتأليف مسرحيته "محمد علي وفتح السودان"، التي عرضتها فرقة أولاد عكاشة -أو "شركة ترقية التمثيل العربي"- على مسرح حديقة الأزبكية في فبراير 1925. وهذه المسرحية لقيت نجاحاً كبيراً في هذا الوقت؛ لأنها كانت تعبر بصق عن تلاحم الشعبين المصري والسوداني. ومما زاد المسرحية انتشاراً، اشتراك المطربة "أم كلثوم" بأغانها الوطنية بين فصول المسرحية، وفي بعض مشاهد الحماسية. وقد كتب الناقد محمد عبدالمجيد حلمي تحليلاً مستفيضاً عن هذه المسرحية، بدأه بهذه الافتتاحية:

"... إذا كان الأستاذ بديع خيري قد قصد إلى إلقاء عظة دينية؛ فقد أفلح كثيراً، إذ ملأ الرواية بالآيات القرآنية، والجمل المتعة التي تفيض حكمة وسمو، والتي فيها رازع للأثم، وزاجر للثيم. وإذا كان قد قصد إلى إلقاء درس في الوطنية؛ فقد نجح نجاحاً عظيماً في حب الشعب على الدفاع عن وطنه؛ لأن مصر والسودان جزء لا يتجزأ؛ فقد كانت تلك اللغة الفخمة، والجمل المتقاة المرصوفة مناراً للحمية، ومبعثاً لامتناع الحواطف والشعور."

وعلى الرغم من أن مسرحية "محمد علي وفتح السودان" تدور أحداثها قبل ظهور المهدي في السودان إلا أنني وضعتها هنا من باب الاكتشافات المسرحية المتعلقة بصورة السودان في المسرح المصري، ناهيك عن كون نصها ما زال مخطوطاً (ملحق الدراسة، الصورة الثالثة والرابعة والخامسة)، ويُعد تكثفاً أدبيا ثانياً، هذا بالإضافة إلى وجود عنصر الدراويش في أحداث المسرحية، وهو عنصر ربما كان إرهاباً لظهور المهدي في ما بعد.

مسرحية تحت العلم

مسرحية "تحت العلم" ألفها عبدالرحمن رشدي المحامي عام 1926، وعرضتها فرقة رمسيس، بطولية يوسف وهبي وفاطمة رشدي، وقد توقع الجميع نجاحها نجاحاً ساحقاً؛ لأنها جمعت بين مؤلف قدير وممثل كان النجم الأول، وممثلة كانت الأشهر. وكفى بنا للدلالة على ذلك، ما أخبرتنا به جريدة "الأهرام" حين إعلانها عن المسرحية قبل عرضها، قائلة:

"... تحت العلم، هي رواية مصرية سودانية. مأساة في أربعة فصول لكاتب مسرحي، درس المسرح، وعرف خوافيه. وكثيراً ما لعب بأفئدتنا، وأبكن عيوننا؛ الأستاذ القدير عبدالرحمن

بدايات المسرح العربي كانت مشوبة بالكثير من الحيطة نظراً إلى الأهمية السياسية البالغة للفن المسرحي في قراءة الأحداث أو تصور مآلاتها وغيره من المواضيع التي يمكنه الخوض فيها، حيث كان المسرح يسمى بـ"رواية". لكن المثير في تتبعنا لتاريخ المسرح العربي هو العلاقة المغيبة بين المسرح السوداني والمصري، حيث نادراً ما تطرق أحدهم إلى تأثير السودان في المسرح المصري الذي يعتبر من الرواد عربياً.

في العالم بأسره- تمت كتابته وعرضه على خشبة المسرح عام 1896 عن الثورة المهدي في السودان.

وبفضل ملخص المسرحية المنشور سابقاً في جريدة القطم، وذكر أسماء الشخصيات والمعلومات المنشورة... إلخ، استطعت أن أكتشف نص مسرحية "المهدي وفتح السودان". وهو نص مخطوط مكتوب بخط اليد بالمداد الأزرق في كراسة تتكون من إحدى وثلاثين صفحة منزوعة الغلاف، وتبدأ صفحاتها الأولى بعنوان "الفصل الأول" ثم وصف المنظر هكذا "في غرفة من قصر المهدي في أم درمان". وفي الصفحة الأولى من الفصل الثاني جاء الآتي "الفصل الثاني، المنظر الأول، في معسكر المصريين في خيمة القائد سردار، لوا، محافظ الحدود، أركان حرب، ضباط مصريين". أما الفصل الثالث فيقع في السجن. والفصل الرابع، يقع في قاعة أمينة في قصر المهدي. والفصل الخامس، يقع... إلخ.

وهذه المخطوطة، نحتاج إلى جهد كبير في تحقيقها من أجل نشرها؛ لأن الطرف الأيسر من الكراسة به تمزق أثر على إخفاء سنتمتر أو نصف سنتمتر من آخر كل سطر يقع على يسار الصفحة اليسرى، أو في بداية الصفحة اليمنى، مما يعني أن الكلمة الأخيرة (فقط) منقوصة تماماً أو آخر حروف منها اختفت، وهذا العيب يحتاج إلى تحقيق مضمّن لوضع احتمالات عديدة للأحرف المحذوفة، لاسيما في ما يتعلق بالآيات الشعرية، وأتمنى أن أجد الوقت لإنجاز هذه المهمة، لإنقاذ هذا الأثر الأدبي، والإسهام في نشره ليستفيد منه المسرح السوداني.

على الرغم من اكتشافنا لنص مسرحية "المهدي وفتح السودان"، إلا أن هناك عرضاً مسرحياً بعنوان "الهجرة"، أعلنت عنه جريدة "مصر" في فبراير 1919، وأن فرقة الشيخ أحمد الشامي ستقوم بتمثيله في تياترو برنتانيا، والمسرحية من تأليف مصطفى سامي. وبعد ثمانية أشهر أعلنت جريدة "الأهرام" وكذلك جريدة "النظام" عن قيام فرقة أحمد الشامي بتمثيل مسرحية "الهجرة" أو "مصر والسودان" على مسرح برنتانيا، وهي من تأليف مصطفى سامي.

وهذا الخبر يعني أن مسرحية الهجرة هي مسرحية "مصر والسودان"، والعكس صحيح. ومما يؤكد هذا الخبر أن أغلب الجرائد -طوال ست سنوات- كانت تعلن عن اسم المسرحية بأنه "الهجرة" أو

نص مسرحية «المهدي وفتح السودان»، هو وثيقة مسرحية أدبية تاريخية وهو أول مسرحية عن الثورة المهديّة في السودان



سيد علي إسماعيل
باحث وأكاديمي مصري

أغلب الدراسات التي تحدثت عن تاريخ المسرح في السودان، تحدثت عنه من خلال ارتباط السودان بمصر، وتحديداً عن أثر المصريين في حركة المسرح السوداني وتاريخه، مما يعني أن أغلب الدراسات تبحث عن صورة مصر وبورها في المسرح السوداني. ولا أظن أن دارسا أو باحثا فكر في كتابة بحث بصورة معكوسة؛ أي البحث عن أثر السودان وتاريخه في المسرح المصري.

إذا حاولت البحث عن اسم السودان أو أحداثه الموقفة في المسرح المصري، سأجد أحداث الثورة المهديّة هي المثال الواضح، لاسيما وأن ظهور المهدي في السودان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر يعدّ الحدث التاريخي الأهم دينا وسياسيا في تلك الفترة بالنسبة إلى مصر والسودان.

النص المكتشف

هذا الحدث وجد طريقه إلى المسرح المصري، عندما ألف نجيب الحداد مسرحيته "المهدي" في أبريل 1896، وأعلنت جريدة "لسان العرب" عن قرب تمثيلها في الإسكندرية من خلال جمعية الاتفاق بالإسكندرية (جريدة لسان العرب- عدد 503- القاهرة 1896/4/7).

ومن الواضح أن الجمعية لم تمثل المسرحية لسبب مأسا حيث قام نجيب الحداد بتغيير العنوان إلى "المهدي وفتح السودان" بعد خمسة أشهر، وقامت فرقة إسكندر فرح بتمثيلها على مسرح شارع عبدالعزيز في سبتمبر 1896 (جريدة القطم- عدد 2287- القاهرة 1896/9/29).

وهذه المسرحية تحديداً، تعدّ من الآثار الأدبية المجهولة لنجيب الحداد، الذي جمع المرحوم الدكتور محمد يوسف نجم أغلب آثاره الأدبية، ونشر جزءاً كبيراً من مسرحياته عام 1966، ورغم ذلك لم يشر الدكتور نجم إلى اسم هذه المسرحية في دراساته، ولم يذكر أنها من آثار نجيب الحداد (محمد يوسف نجيب- المسرحية في الأدب العربي الحديث- دار الثقافة- بيروت 1956، وكتابه الأخر: المسرح العربي: دراسات ونصوص... نجيب حداد- دار الثقافة- بيروت 1966).

كما أن هاني هلال خوري كتب بحثاً قيماً عن نجيب الحداد عام 1969 -ما زال مخطوطاً ومحفوظاً في الجامعة الأميركية في بيروت- أشار فيه إلى مسرحية "المهدي وفتح السودان"، وأنها من تأليف نجيب الحداد، مؤكداً أنها غير منشورة ومفقودة، ولم يحصل على نصها المخطوط أي باحث حتى الآن.

ولأهمية هذه المسرحية وجدت مقالة منشورة عنها، وعن مضمونها وظروف تمثيلها، نشرتها جريدة "القطم" المصرية يوم 30/9/1896.

يتضح لنا -مما سبق- أن نص مسرحية "المهدي وفتح السودان"، هو وثيقة مسرحية أدبية تاريخية مهمة جداً، لأنه مكتوب في أبريل -وربما عدل في سبتمبر- سنة 1896. أي أثناء قوة الثورة المهديّة وانتشارها في السودان، وقبيل الحملة الإنكليزية المصرية، وقبل سنوات قليلة من حسم المعركة بين جميع الأطراف؛ وبناء على ذلك، نستطيع القول: إن ظهور نص مسرحية "المهدي وفتح السودان" سيفتح المجال واسعاً لكتابة دراسات مسرحية متنوعة؛ لأنه يُعدّ اكتشافاً أدبياً كبيراً لأهم أثر أدبي، لأشهر كاتب مسرحي في مصر والشام في القرن التاسع عشر، وهو الشيخ نجيب الحداد اللبناني، ناهيك عن قيمة النص؛ بوصفه أول نص مسرحي - في عالمنا العربي وربما